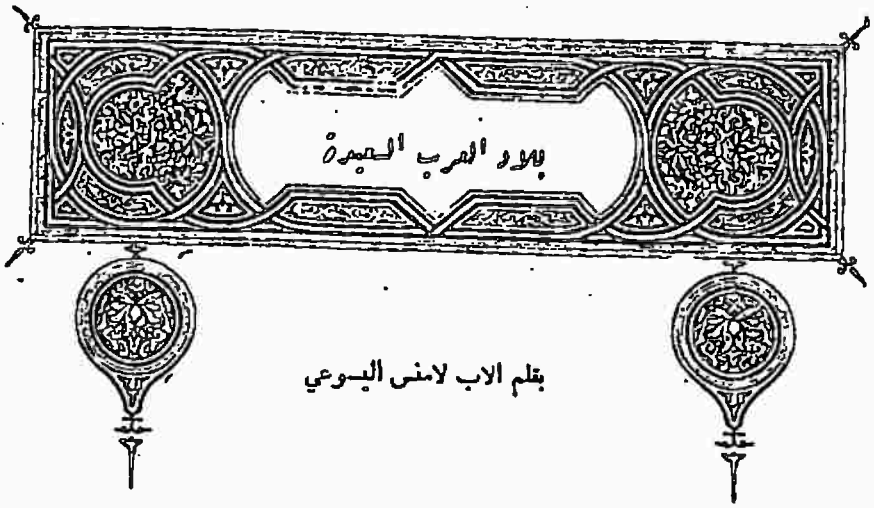

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه جزيرة العرب ، قرب خليج باب المندب حيث يتصل البحر الاحمر بالاوقيانوس الهندي ، قُطرٌ دعاه جغرافيو اليونان والرومان « بلاد العرب السعيدة » . اما ما دفعهم الى استعمال هذا الاسم المبشر بالخير فهو ان ذاك القطر — الذي يسميه العرب «اليمن» — يمتاز عن سائر الاقطار العربية فيفضلها بعدة صفات من حيث مناخه وتنوع محصولاته وغناها ، ومن حيث سكّانه ومدنيته العريقة في القدم ، ومن حيث لغته ايضاً وهي اللغة الحميرية ، وابجديته وهي المعروفة بالخط المسند . فاليمن غير صحاري العرب القاحلة ، بلاد الجوع والعطش .

في مرافئ اليمن كانت سفن الهند والشرق الاقصى ترسو فتفرغ محصولات بلادها الغنية ، فيتزاحم التجّار ويتبارون في شرائها والاتجار بها . وفي اليمن كانت السوق العالمية لتجارة البخور والطيوب الغالية التي كانت تباع بالذهب ثقلاً بثقل .

وكان الاقدمون ، بشهادة التوراة وكتبة اليونان والرومان ، يعتبرون اليمن بلاداً مطيبة الهواء بالبخور وعطور النباتات ، لا يتكلف سكّانها سوى الانحناء الى الارض ليجمعوا المعادن النفيسة الكريمة . فلا عجب اذن ان اجمع كتبة الاقدمين على نعت تلك البلاد « بالسعيدة » .

على انه لم يبقَ اليوم من تلك السعادة الا ما لم يقوَ الناس على ملاشاته ،

اي المناخ والمناظر الجغرافية . وهو ما سنبيّنه دارسين بلاد اليمن الحاضرة [1].

* * *

يحدّ اليمن من الشمال بلاد عسير ، ومن الغرب البحر الاحمر ، ومن الجنوب الاوقيانوس الهندي ، ومن الشرق صحاري الربع الخالي . فيؤلف مستطيلاً من الارض بين الدرجتين ١٣ و ١٧ من الطول الشمالي . اما مساحته فتبلغ ٤٣,٠٠٠ كيلومتر مربع تنقسم الى ثلاث مناطق متوازية مبتدئة من شواطئ البحر الاحمر ، وصاعدة تدريجياً الى الداخلية . ولكل من هذه المناطق مناخ خاص يستفيد من الموسم ، والموسم اسم السيول الغزيرة التي تفدقها على تلك البلاد رطوبة الاوقيانوس الهندي اذ تسوقها رياح الجنوب الى بلاد اليمن . اما المنطقة الاولى فهي تهامة ، تشمل شاطئ البحر الاحمر وبعض الجزر كأرخبيل كمران ، وتمتد في سهل شديد الحرارة يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر نحو ٢٠٠ متر . وهذه المنطقة اقلّ مناطق اليمن خصباً ، وان حرارتها الرطبة تجعل الاقامة فيها ذات متاعب ومشقّات . اما المنطقة الثانية فسلسلة جبال موازية للبحر ترتفع بمعدّل ١٢٠٠ متر ، يرويها عدد من السيول الجارفة والسواقي ، ولكن على غير نظام ولا ترتيب . وتمطر فيها السماء مرّتين في السنة ، في نيسان وفي ايلول ، فتجعلها اكثر المناطق الثلاث خصباً حتى ان السكان قد يستغلون سنوياً ثلاثة مواسم . واما المنطقة الثالثة فتتألف من الجبال الداخلية العالية التي ينتهي ارتفاعها الى معدّل لا يقلّ عن ٢,٠٠٠ متر .

يبلغ سكان اليمن مليوناً ونصف مليون ، لا خمسة ملايين كما تقول المصادر الرسمية وكما يردّد الكتّاب دون تدقيق . على ان موارد البلاد كافية لاعالة خمسة ملايين واكثر . الا ان المبادئ الصحية مجهولة في العيال خصوصاً ، وكذلك طرق الوقاية . وليس هناك من اطباء يقاومون مفاعيل الاوبئة المنتشرة وامراض الاطفال التي تذهب بالكثير من الضحايا ، حتى ان نصف الاطفال على التقريب يموتون دون سنّ البلوغ ، وقد افترط الامام يحيى عشرة

(١) اخذنا رسوم هذا المقال من كتاب :

Herm. Burchardt u. Mittwoch, *Aus dem Jemen*, Leipzig ; Brockhaus.

من ابنائه الشرعيين . واذا اضفنا الى هذه النوازل نزوع السكان الى حياة الفوضى ، وحروبهم الدائمة حتى ان تاريخهم كله يلخص باخبار محاربتهم للاتراك ، وللانكليز ، ولجيرانهم ، وعراكهم بعضهم ضدّ البعض الآخر ، قبيلةً ضدّ قبيلة وحياً ضدّ حيّ ؛ ممّا صرفهم الى الرغبة في الاعتزال ، والالتجاء الى جبالهم ، فقست قلوبهم وشرست طباعهم ، فانبعضوا الغريب بغضاً شديداً ، وغدوا على استعداد دائم للقتال لا يكادون يفترقون عن بندقياتهم ؛ اذا اضفنا هذا الى ما تقدّم من سوء الحالة الصحية ، ادركنا سبب التوقف في عدد السكّان ، وسبب الشظف والشقاء في معيشتهم ، على الرغم من خصب البلاد وغنى مواردها . فان دوام المنازعات والحروب ينفي الامن والطمأنينة ، فيمنع الناس من استغلال تلك الموارد الطبيعية الغزيرة على سطح الارض وتحتها .

اهم مرافئ اليمن الحُدَيدة (٤٢,٠٠٠ ساكن) ، ثم مُخا التي نالت شهرة بعيدة في تجارة البنّ حتى دُعي البنّ اليمني باسمها ، وقد انحطت اليوم وادرك الخراب قسماً صالحاً من مبانيها . وهناك عدد من المدن لا يتجاوز سكانها الخمسة الآلاف منها لُحَيَّة ، وبيت الفقيه ، ومناخه ، وتَعِزّ ، وذمار ، وَيريم . واكبر منها زَبيد التي تعدّ ثمانية آلاف ، وصعدة وفيها ستة آلاف . اما صنعاء العاصمة فيبلغ سكانها ٢٢,٠٠٠ فيهم نحو ٨,٠٠٠ يهودي . وهي تعلو عن سطح البحر اكثر من الفي متر فتستقبل النسيم باردًا فيطيب حرارة المنطقة ويولي المدينة مناخاً ممتازاً . وقد زارها امين الريحاني في صيف سنة ١٩٢٢ ، فوصفها قائلاً : (١)

« ان صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً . اسواقها مثل اسواق جدّه غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية ، وبعضها ستّ طبقات ، فبناؤها اكثر اتقاناً واجمل هندسة . لان الاسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء اجنبي هندي او اوربي . وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء ، وبعضها بالآجرّ ، والبعض باللبن وبين كل طابق والآخر زنّار من الجصّ الابيض المنقوش اشكالاً هندسية . وفوق كل نافذة كوّة فيها لوح من المرمر يكاد

(١) امين الريحاني : ملوك العرب ، بيروت ١٩٢٤ ، ١ : ١١١

يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنه امتن من الزجاج واجمل . ولاكثر البيوت في الطابق الاخير غرفة واحدة هي غالباً معلقة من جهاتها الاربع تُشرف على المدينة ، وتُدعى المنظرة . وهم يستخدمونها للاستقبال والقيلولة فيفرشونها بالطنافس والمساند والوسائد . ومنهم من يستعملون الزجاج الملوّن في النوافذ فيقسمونه اشكالاً هندسية ، ويلوّنونها بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق ، اي الاصباغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن ، يستخرجونها من النبات . »

اكثر سكان اليمن من القبائل العربية القحطانية ، الا أسر « الاسياد » المنتسبة الى النبي . ولكثرة ما كان يعقد عرب تلك البلاد من الزيجات مع السبيد والموالي من الاحباش ، اختلط الدم ، وغدا لون اليمانيين ضارباً الى الادمة بل الى السواد احياناً . وفي اليمن ١٥٠,٠٠٠ يهودي يتحدّرون عن قوم ذي نُواس الذين حرقوا نصارى نجران ، اصحاب الاخدود الوارد ذكرهم في القرآن (٨٥ : ٤) ، والحديث ، وسيرة الرسول . واليهود يدفعون الجزية ، ويسكنون احياء خاصة . ويحتقرهم المسلمون كثيراً فيمنعونهم من ركوب الدوابّ الا الحمير ، ولا يسمحون لهم برفع منازلهم فوق الطابقين . اما منازل المسلمين فكثيراً ما تبلغ الثانية طوابق كما يظهر في الرسم ١ . ولليهود حاخام اعظم لا يزال يُدعى « حاخام باشا » منذ عهد الاتراك . وفي اليمن ايضاً بضعة آلاف من الاسماعيليين يسكنون نجران وما حولها ، وهم من اعدى اعداء الزيود ، ولكنهم يدفعون الجزية للامام الزيدي . ويستعملون في كتبهم الدينية ابجدية خاصة تُذكّر بالخطّ المسند . واهل اليمن جميعهم ، رجالاً ونساء ، يلبسون نوعاً من البرانيط يتقون به حرارة الشمس المحرقة . وكلهم يتكلمون اللغة العربية ، وفي لهجاتهم تعابير غريبة قد تكون من آثار اللغة الحميرية السابقة للهجرة .

***

يبلغ مسلمو اليمن نحو ١,٤٠٠,٠٠٠ ثلثهم من السنيين على المذهب الشافعي ، يسكنون السهول في منطقة تهامة والشواطئ البحرية . والثلثان الآخران من الزيود ، يسكنون الجبال . والفريقان اليوم على وفاق ، الا ان

اتفاقهما ضعيف الورى ، قد يكفي اقل خلاف لفصمه . والزيود فرقة من الشيعة [1] ينفردون بانهم يجعلون مكان امام الجعافرة الخامس إماماً خاصاً بهم هو زيد ، حفيد الحسين بن علي ، الذي قتل سنة ٧٤٠ ، في محاربته للخليفة هشام بن عبد الملك . وهم اقرب الفرق الشيعية من السنيين ، لا يعتقدون « بغيبة الامام » ، وينتخبون امامهم انتخاباً . اما الامام الحالي فهو يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله ، المولود سنة ١٨٧٦ ، والمنتخب امام الزيود ، سنة ١٩٠٢ ، خلفاً لابيه ، الامام المنصور . كان من تابعي سلاطين تركية حتى قبيل الحرب ، فنال استقلالاً جزئياً أتمه على اثر اندحار الترك سنة ١٩١٨ . وفي سنة ١٩٢٥ احتل الحديدة ، واغتصبها من السيد الادريسي ، امام عسير . ولا يزال طموحه يدفع به الى احتلال مقاطعات اليمن القديمة اي عسير وحضرموت . وهو امير حازم مجتهد يقوم احسن قيام بواجباته الادارية والدينية . ولكنه لا يزال من الزي القديم بين الامراء ، فهو كثير الشك بمعاونيه وعماله ، يرتاب بكل ما يحدث حوله ، وقد اعتقل مئات الرهائن يحتفظ بهم ليمنع الخيانات التي قد يرتكبها ولاته والدسائس التي قد يدبرها الاسياد العلويون لخلعه من الامارة . اقام عنده امين الريحاني نحو العشرين يوماً فوصفه بما يلي [2] .

« دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه ، فاتحه . وله فم كفم الطفل صغير بارز ، الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من أنف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين وداعة . وله لحية سوداء قصيرة مستديرة يتخللها خيوط من الشيب . يلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ، ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية ، والى جنبيه الوسائد يتكئ عليها ، وامامه زجاجة من الماء ورزمة من القات ، وخادم ينتخب الطري من

١) راجع كتابنا : *L'Islam, croyances et institutions*, p. 170, 199

٢) الكتاب المذكور ١ : ١١٦-١١٧

الرسم ٣
بدوي من مأرب

الرسم ٤
فلاح من فلاحي اليمن

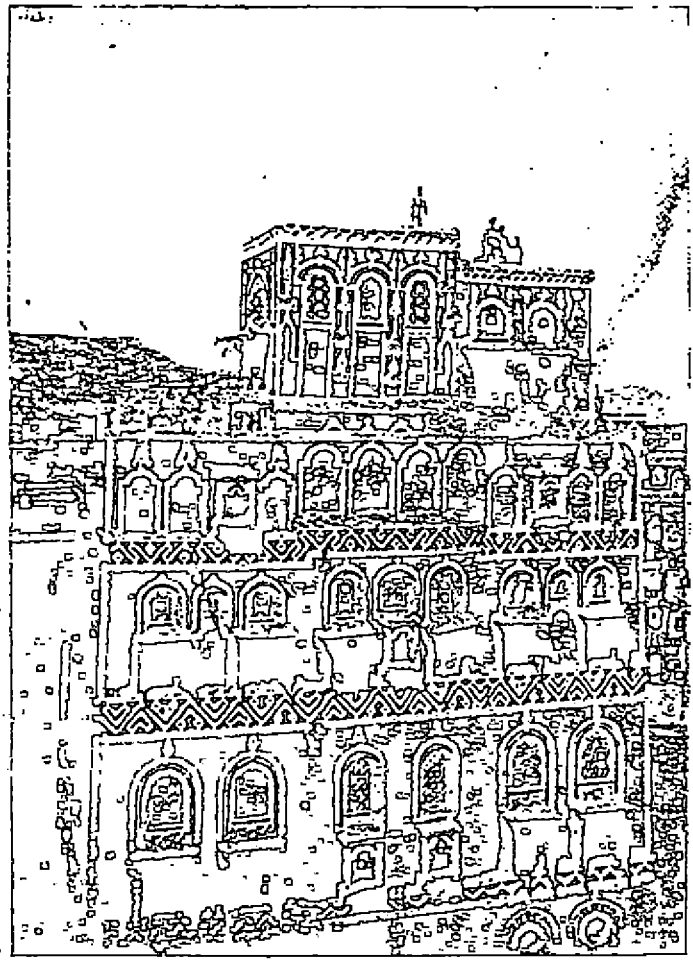

الرسم ١

منزل من منازل صنعاء

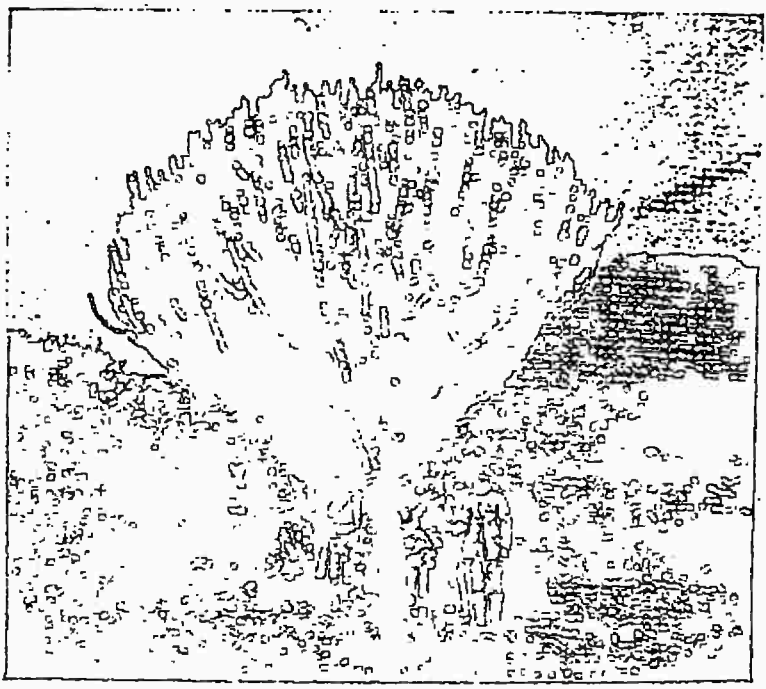

الرسم ٢

شجرة البستى العظيمة

غصونها فيقدمها له . هو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله . صافحناه مسلمين فرد السلام مرحباً بنا دون ان يقف . جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش ، والغرفة الصغيرة مفروشة بمثلها ، وفيها عند الباب ديوان ، وعلى الحائط خرائط البلاد العربية واليابانية باللغة التركية .»

عقد اليمن معاهدة ولاء مع روسية سنة ١٩٢٩ ، ومعاهدة مع ايطالية التي ترود اليه الاسلحة والذخائر وبعض الفنيين الاختصاصيين بصناعة رصاص البنادق ؛ وعقد اتفاقاً مع تركية ، وآخر مع نجد . ويقيم في الحُدَيدة قنصل انكليزي ، وآخر فرنسوي ، وثالث ايطالي . اما القبائل المهمة في تلك البلاد فهي حاشد وباقل المتحالفتان ، والزرانيق في تهامة ، وبنو حمدان ، وبنو يام الاسماعيليون في منطقة نجران . وكلها صعبة الانصياع لاوامر الحكومة تُعتبر مستقلة نوعاً ما .

وقد أُصلح نظام الجيش منذ السنة ١٩٢٦ ، وهو يعدّ ١٢,٠٠٠ عسكري يدرّبهم ضباط اتراك ، وفي حالة الحرب ، كل رجل سليم في اليمن يُعتبر من المقاتلين . اما المعارف فضئيلة ، وليس في اليمن الا عدد قليل من المدارس الابتدائية ، دخل شيء طفيف من التجديد في اساليب بعضها بفضل المعلمين من الاتراك ، وفي البلاد كلها جريدة واحدة ، هي الرسمية ، تصدر في صنعاء واسمها «اليمن» . اما حركة التجارة فبطيئة جداً ، وليس لدينا معلومات احصائية الا ما نُشر في السنة ١٩٠٩ عن مرفأ الحديدة . وان اهم بضاعة تصدر من اليمن البنّ الذي يُعدّ «ملك البنّ» ، الا انه اليوم يقاوم بصعوبة مزاحمة البنّ البرازيلي لرخص هذا . وقد أُصدر من البنّ اليمني سنة ١٩٢٢ ، عشرة آلاف كيس ، وما اقلها اذا قابلناها بمئات الالوف من اكياس البنّ التي تأتينا من اميركة ! واهل اليمن لا يشربون الا قهوة خاصة يطلون لها قشرة البنّ لا لبه . ونبات البنّ ينمو في تلك البلاد في علوّ يتراوح بين ١٢٠٠ و ٢٤٠٠ متر ، وافضل الاماكن لغرسه المنخفضات التي تحميه من حرارة الشمس اللاذعة . وفي مجاهل اليمن وغاباته تهيم حتى اليوم جماعات من القردة والسعادين . ويرى المسافر في المناطق الداخلية كثيراً من الكتابات والنقوش المينية والحميرية يرقى بعضها الى عدة قرون قبل المسيح فيدلّ على مدنية متقدّمة .

هذه بلاد الامام يحيى « امير المؤمنين » كما يدعو نفسه رسمياً ، حتى مذ عهد الاتراك . هذه « بلاد العرب السعيدة » كما تظهر في ايامنا . وهي تكون سعيدة حقاً ، ان شاءت ان تتمتع بسلام وطمأنينة ، بالخيرات العديدة التي احتبتها لها السماء ، فتضع حداً للمنازعات الداخلية من سياسية ودينية بين الشوافع والزيود . وهي تكون سعيدة ان انصرفت عنها مطامع جيرانها . فابن سعود لا يفتأ عاملاً على توسيع نفوذه ، وقد ثبتت حمايته مؤخراً على عسير الجنوبي الذي يعتبره الامام يحيى قطعةً من اليمن . ولا نبالغ اذا قلنا انه سيتولد من هذا الخلاف مشادّة عنيفة لا ندرك نتيجتها بين أميرين كثيري المطامح ، شديدي العناد ، يدعو احدهما نفسه « امير المؤمنين » ، بينما الآخر يكر بنشوة انتصاراته السابقة فيزداد طموحاً . من منهما يقوم بالتضحيات اللازمة للسلام العام في البلدين ؟ ومن منهما يتنازل عن شيء مما يعتبره حقه الشرعي ؟ اننا نخشى صلابة ابن سعود ان تدفعه الى التمسك بطالبه ؛ وعندئذٍ فليس الا الحرب بين اميرين يزعم كل منهما انه يعمل لمصلحة العرب اجمعين ولخير الاسلام العام . . .

هذا وان الحاج فيلبي (Philby) الانكليزي الذي اعتنق الدين الاسلامي مؤخراً واضحى مستشاراً لابن سعود ، لا يفتأ يدفع اميره الى محاربة اليمن . ولكن حالة ملك الوهابيين المالية لا تسمح بمباشرة هذه الحرب ، وان هو قبل مساعدة الانكليز ، استهدف لفقدان ما بقي له من ميل الشعب . وعلى كل فان المستقبل كفيل بحلّ هذا المشكل ، فلننتظره مترقبين . . .